Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف .المسيلة الجزائر

المجلد .09عدد : 3–19 نوفمبر2021 صفحة من : 09إلى 18

المخيال الصحراوي والأسطورة في روايات إبراهيم الكوني

The desert imagination and myth in the novels of Ibrahim al-Koni

أسماء حريزي *[1]
asmaherizi90@gmail.com كلية الآداب واللغات جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر

معلومات المقال

تاريخ الاستلام: 2021/09/19.
تاريخ القبول: 2021/09/24.

الرواية، الصحراء، المتخيل الأدبي، الأسطورة.

ملخص Article info

لطالما اعتبر الصحراء امتدادا لانهائيا من الرمال والصخور والسراب والفراغ، وهي موطن الجفاف والحر، والكفاف والجذب، ولكنها في المقابل غنية بتراثها الثقافي وإنتاجها الرمزي، فهي دوما أكبر فضاء للحرية والتأمل والتفكير، وأفضل موطن للأساطير والأديان، جذبت الصحراء كفضاء طبيعي وسوسيوثقافي الكثير من الكتاب والفنانين الأجانب لتصويرها باعتبارها فضاءً جديدا مغايرا لما ألفوه، فجاءت صورة تلك الصحراء تعبر عن استيهاماتهم، ولعلّ تجربة الروائي الليبي "إبراهيم الكوني" خير دليل على ذلك لأنّها أضافت آفاقا إنسانية وشعرية، إذ جعل مشاهد الصحراء، ومعتقداتهما الدينية، وقصائد الطوارق سمات خاصة به، حيث نجد في كثير من أعمال الكوني أنّ المشاهد الطبيعية والحيوانات ليست مجرد إكسسوارات سر، بل تعدت ذلك إلى نظرة جديدة تفسر العلاقة بين البشر والحيوان وبين الروح والمشاهد الطبيعية، وظل "إبراهيم الكوني" وفيا لصحرائه الكبرى وأساطيرها وعجائبيتها، ولعلّ هذا ما شكل بؤرة الإبداع لديه.

Key words
the novel, the desert, the literary imagination, the legend.

The desert has always been known as an infinite spread of sand, rocks, and mirage. It has also been considered as the home of drought and heat, satisfaction and attraction . However , it is very rich of its cultural heritage and its simple valuable production. The desert is absolutely the largest space for freedom, cerebration and meditation, and the best home for myths and religions.

The desert, concerning its natural, social , and cultural sides , has attracted many foreign writers and artists to portray it as a new space different from what they used to write about before . So , the value of that desert expresses their wanderings , and perhaps the experience of the Libyan novelist (Ibrahim Al-Koni) is the best evidence of that because it added new human and poetic vistas and outlooks then he made desert scenes, their religious beliefs, and Tuareg poems his own features. So, we find in many of (al-Koni's) novels that natural scenes and animals are not just secret creatures , but rather went behind that to a new view that explains the relationship between humans and animals and between the spirit and natural scenes.

(Ibrahim Al-Koni) stayed faithful to his great desert, its legends and its wonders, and perhaps this is what formed his creativity.

المؤلف المرسل: حريزي أسماء[1]

يحتفي الأدب العربي الحديث بالنصوص السردية احتفاء خاصا، وبخاصة الرواية إلى درجة يمكننا القول فيها أنّ عصرنا هو عصر الرواية، ولكون الرواية تنقل مشاعر المجتمع وطموحاته يمكن عدها بنصوصها الأساسية من المرويات الكبرى التّي تسهم في صوغ الهويات الثقافية للأمم لقدرتها على تشكيل التصورات العامة عن الشعوب والحقب التاريخية، والتحولات الثقافية للمجتمع بمختلف شرائحه.

فالرواية من أهم الأشكال السردية التّي حظيت بالعديد من الدراسات ولا تزال محل اهتمام النقاد والباحثين، كونها تمثل سجل المجتمع البشري، ومرآة عاكسة للواقع وأزماته، حيث يتطرق الروائي المبدع لمعالجة القضايا التّي شغلت المجتمع سواء كانت اجتماعية أو نفسية، سياسية أو تاريخية، بأسلوبه الفني الخاص، معتمدا في ذلك على طريقة السرد، هذا الأخير الذّي يعد أداة من أدوات التعبير وصيغة ضرورية لفهم المواقف الإنسانية وجوهرا مهما في النصوص الأدبية عامة والسردية خاصة، ولكل روائي طريقته المميزة في السرد، وأدواته الفنية في توظيفه للمكونات السردية وكيفية بنائها في العمل السردي.

ومن الروائيين العرب الذين انتدبوا أنفسهم لمعاينة الرواية بمختلف أبعادها نجد الروائي الليبي إبراهيم الكوني، هذا الأخير الذّي ما ذكر اسمه إلا وتبادر إلى أذهاننا الصحراء الإفريقية الكبرى بجميع أبعادها، إذ لم يترك الكوني شيئا في هذه الصحراء إلا وتطرق إليه، حيث نجده يصور لنا مائها وصخورها، شساعتها وانفتاح سمائها وزرقتها، عاداتها وتقاليدها، طقوس الحب والزواج.

فالكوني من خلال رسمه للصحراء بمعالمها وسحرها وتفاصيلها الدقيقة، شطل طفرة نوعية في مجال الكتابة السردية العربيّة لتميزه عن جمهور الروائيين العرب المحدثين والمعاصرين، ولعلّ هذا التميز يرجع في الأصل إلى أسلوبه الفريد من نوعه، وإلى تيماته السردية، التّي خصته دون غيره من الكتاب، تيمة الصحراء وأهلها "مجتمع الطوارق وأساطيره"، فقد استطاع الكوني بفضل مواضيعه وطريقته في الكتابة أن يخصص لنفسه مكانة راقية ومميزة في الوطن العربي، الأمر الذّي جعل الكثير من المترجمين يترجمون أعماله الروائية إلى جميع لغات العالم مما مكنه من أن يتحرر من طوق الصحراء ليلامس العالمية، فلقد تعدى بإبداعه وتجربته الروائية «في تفردها الإبداعي خريطة استقبال ناطقي العربيّة إلى ناطقي كبرى اللغات الحية، ولم يقف حدود هذا الاستقبال عند ترجمة أعماله الإبداعية، بل تجاوزها إلى الدراسات النّقدية والأكاديمية في أوسع اللغات (الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الروسية، البولونية)، لا شك في أنّ هذه العناية الداهشة بتجربة الكوني تدل على رحابة تفرد إبداعي وفني في الرواية العربيّة اجترها الكوني لروايته، لذلك اتفق الدارسون، عربا وأجانب، على تفرد شامخ في كتابات إبراهيم الكوني الروائية»[1]، وإنه لمن المفارقات المؤسفة أن يعرف الكوني في الغرب ويكرم قبل أن يعرف في الوطن العربي، فقد ترجمت جل أعماله إلى جميع لغات العالم لا لشيء سوى لأنّه استطاع الانطلاق

من صحرائه واوه الصغرى، ليصل إلى العالمية واوه الكبرى، بفضل ما عمل عليه في مشروعه السردي من تجريب واختراق للمألوف والسائد بشكل من الحرفية ودون الوقوع في النمطية، وكثيرا ما نصطدم في روايات الكوني بعالم عجيب آسر، يأسرنا من الوهلة الأولى بغرابته وفرادته وجدته، عالم مفعم بالأساطير والسحر الذّي تناقله الأجداد والشيوخ والعرافين، وتجلى إبداعه من جهة أخرى عن طريق سرد «مغامراته وتوغله بعيدا في عمق الصحراء مستثمرا شذرات من تاريخ الطوارق، الذّي تحول في سرده إلى عالم قائم بذاته... وكما يرى روجر ألف أنّ الكوني قد قدم إضافة بارزة إلى الاتجاه الذّي يصبح فيه التوسل بتراث الماضي إبداعا بارزا، أما صيغة الحاضر فيتوسل بها باستمرار في تلك اللحظات التّي يكون فيها الإنشاء مرجعها في أكثر خرافية أسطورية».[2]

ونظرا لبراعة الكوني في استثمار هذا الأفق الغرائبي لبناء فضاء روائي سحري، وقدرته على تصوير الرواية بطرق غريبة وعجيبة مستوحاة من البيئة الصحراوية التّي تغذت على الخرافات الشعبية والمحلية، فأنّه جدير بنا البحث عن ماهية العوالم التخيلية التّي غاص فيها الكوني، ومن أين استوحاها؟!، وما هي محتويات هذه العوالم؟! وأين يتجلى شكل الصوغ الأسلوبي الذّي يميز عالم النّص التخيلي ويحدد خصائصها؟.

وللكشف عن طبيعة البناء الحكائي وبعض سماته المنطقية، لابد أن نقف عند الشّخصيات التّي نجدها في عوالم الكوني مختلفة عما ألفه القراء في باقي الأصناف الأخرى، فلقد برع الكوني في النفاذ والغوص في العوالم التخيلية والإنسانية العجائبية التّي استوحت سحرها من البيئة، وهذا من ناحية أخرى نجده يميط اللثام عن البشرية التّي اختفت وراء اللثام، فأقل ما يقال عليها أنّها «شخصيات موجودة على حافة الحياة دائما، وكأنها في صراع أبدي مع الموت، لا وقت لديها للتفكير إلا بما يحفظ استمرار حياتها، ويحفظها في مواجهة الفناء، كل شيء في المجتمع الصحراوي آكل أو مأكول، وكل شخص فيه قاتل أو قتيل، حياة أو موت، وحين يكون الخيار الوحيد أمام الشّخصية هو الوجود في رؤية مكانية منبسطة مشغولة بمقاومة الموت، ولهذا السبب فإنّ المجتمعات الصحراوية مجتمعات بلا زمن، تعيد إنتاج نفسها باستمرار، بطريقة واحدة وكأنها موجودة في الأبد، هكذا يملي المكان نوعا محددا من الزمان الدائري ويفرضه في هذه البيئة».[3]

فالشخصيات- إذن- هي حلقة الوصل التّي تشكل الإطار المفهومي والعملي، فالعالم بلا قيمة ما لم يكن آدميا، و«ليس غريبا أن عنى الكوني ببناء شخصياته بناء محكما تصير فيه الشّخصية حاملة لمعاني شتى وباعثة على الكثير من الفهم والتأويل، والعناية بالشخصية هي عناية بالإطار الذّي سيحمل معاني العالم التخييلي ويمنحه الخصوصية ويمنحه الحياة».[4]

إذن لا يمكن أن يتم العمل الروائي بدون شخصيات، فهم المحرك الرئيسي لجميع عناصر الرواية فلا مكان ولا زمان ولا لغة بدونهم، فالشخصية هي التّي تحمل رؤية الروائي وموقفه الفكري، والشخصيات الروائية متنوعة منها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو

تاريخي، ومنها ما هو غرائبي، فحسب د. عثماني الميلودي أنّ شخصيات الكوني في مختلف رواياته تنقسم إلى حالية (مرجعية)، وتخييلية (ممكنة أو مستحيلة)، فالشخصيات الحالية «لها وجود في العالم الحالي، وتحمل اسما يميزها، ذات وضع اعتباري خاص، رغم أنّها قد تتعرض لبعض التحويرات في العالم التخييلي، وهي نوع من الشّخصيات ذات القيمة المرجعية وحضورها بجانب الشّخصيات التخييلية له قيمة كبيرة على التخييل بعامة»[5]، أما الشّخصيات التخييلية «فهي مجموع الشّخصيات التّي ابتكرت ابتكارا، فإذا كانت هذه الشّخصيات تمتلك الصفات المميزة للشخصيات الحالية فإنّنا ندرجها ضمن الشّخصيات الممكنة، أما إذا لم تكن تمتلك هذه الصفات، حتى وإن نسبت إليها بعض صفات الشّخصيات الحالية (كالكلام والتأمل وعقد المواثيق والإغاثة وغيرها)، فإننا نضعها ضمن الشّخصيات المستحيلة».[6]

إذن نجد أنّ مختلف الشّخصيات التّي تناولها الكوني سعيدة بقدره وراضية بهذا الشقاء الذّي كان أمرا محتما عليها، شقاء البيئة من الحر والجذب والظمأ والوحدة، فيما من هو خير ومن هو شرير، فيها النبيل والوضيع، وفيها الحكيم والسفيه، ولكنها كلها تسعى من أجل طلب لقمة العيش وإخماد نار الظمأ لكي تبقى على قيد الحياة في فضاء لا يعرف المدى ولا الحدود، إنه فضاء الصحراء الفسيح.

لطالما عرف الكوني بتأسيسه لأدب المكان الصحراوي في مختلف أعماله الت اهتمت بسرد عالم الصحراء الليبية، وصفها مكانا مميزا وعالما عجائبيا غريبا، فكثيرا ما نجد أنّ الصحراء تستأثر «باهتمام منقطع النظير في عالم الكوني الروائي، فغضبها وصفاؤها وعتمتها وأمنها وغدرها يترك أثره الكبير في الأبنية السردية بما في ذلك الشّخصيات والأحداث واللغة».[7]

فالكوني في رواياته يقوم بتحويل عناصر الطبيعة الصماء إلى عالم غرائبي، وسردي تخييلي بديع، تؤته اللغة الجمالية بأبعاد أعمق من وصف المظاهر الخارجية، بل أبعد من ذلك، فلغة الكوني لغة عميق يصف فيها العادات والتقاليد، ويرصد فيها الأبعاد الاجتماعية والثقافية لأصحاب المكان- شعب الطوارق- الذين يمثلون مسرحا في حلقة مشهدية متفردة، استطاعت التعايش مع عالم جغرافي يتصف بالقسوة والحرمان، لذلك فقد رصد «الكوني في رواياته وقصصه المعالم الجغرافية، والحياة الاجتماعية، والروحية في الصحراء الليبية الكبرى، وتتميز رواياته عن غيرها من الروايات التّي تناولت الصحراء باهتمامها بالعودة إلى الماضي السحيق للصحراء، والكشف عن أساطيرها ورموزها، ورمالها التّي سطر عليها الأسلاف تعاويذهم، ورقاهم، وتمائمهم السحرية».[8]

لقد ظلت الصحراء مدة طويلة من الزمن مرتبطة بالجذب والموات بوصفها المكان الأقل ملائمة لحياة معظم البشر، لذلك ظلت تقبع في دهاليز الصمت والظلام، لتسكن عالم الأساطير والخرافات والحكايات العجيبة والخارقة، باعتبارها المكان الأنسب لاحتضان هذا النوع من الأدب ولكن المتأمل في خطاب الرواية العربيّة الحديثة الخاص بفضاء الصحراء، يلاحظ اختلافا كبيرا في روايات المدينة،

وهذا الاختلاف نابع من خصوصية الصحراء نفسها، فهي سر خفي وطلسم لا يستطيع فك شفراته «ولا يحظى بامتلاك رموزه إلا مجموعة من الأدباء والكتاب الذين هم سليلو تلك المناطق من العالم العربي الذّي شكلت فيه الصحراء جزءا كبيرا ومهما من الجغرافيا العامة، إضافة إلى تميزها بتراث ثقافي ورمزي من نوعية خاصة تفرض كل ثقافة جديدة طارئة تحاول التغيير أو تسعى إليه»[9]، لأنّ ثقافة الصحراء ثقافة قارة في عرف أبنائها، وكل فرد يسعى نحو تطويرها أو استبدالها بثقافة وافدة مفردا منبوذا مغضوبا عليه من مجتمع الصحراء.

فقد مثلت الصحراء الفضاء الأكبر للشعر العربي القديم، لدرجة يمكننا أن نسميه شعر الصحراء، أما في الأدب العربي المعاصر، فكانت أعمال بعض الروائيين والقصاصين أمثال (عبد الرحمن منيف، أحمد إبراهيم الفقيه، ميرال الطحاوي ورجاء عالم... وكذا إبراهيم الكوني)، فكل منهم انتهج من الفضاء الصحراوي موضوعا له وجعل منه مسرحا يصور لنا أحداث غرائبية عجيبة، وهؤلاء الأدباء استطاعوا بوصفهم للصحراء أن يدفعوا الأفكار السلبية التّي حصرت الرواية أن تظهر إلا في المدن، فتمكنوا من تشغيل الصحراء وتدويرها كفضاء تخييلي يغري بالتشخيص، فوصفوها وكأنها عالم عجائبي مليء بالجذب وحافل بالرموز والأساطير، ومن هذا المنظور «توجهت الرواية العربيّة المعاصرة في عدد من النماذج المتقدمة فنيا وفكريا إلى الصحراء، وكان طليعة نتائج هذا التوجه أنّ المكان الروائي الصحراوي خصوصا تجاوز سكونيته السالبة المعهودة في الأنماط الروائية التقليدية، وانضم إلى العناصر الحركية الفاعلة في تكوين بنية الرواية ومنح عالمها الداخلي مزيدا من التنامي والحيوية والجماليات الإضافية الخاصة».[10]

يعمل إبراهيم الكوني من الصحراء فضاء للروح والطهر والسكينة، فمن أراد أن يتطهر عليه أن يتيه ويهوم في الصحراء، ولا يستقر في الواحات أو السواحل، صحراء إبراهيم الكوني تبدو إلى جانب ذلك فضاء للشغف وللفروسية، فالفارس لا يكون فارسا إذا لم يكن عاشقا، وغالبا ما تنتهي حكايات العشق بالموت كما في رواية الخسوف أو التيه كما في رواية المجوس، كما أنّها فضاء للزاهد والعزلة والتصوف.

فاسم الكوني- إذن- مرتبط بالصحراء في الأدب العربي، فهو سيد هذه التيمة في الرواية العربيّة، حيث استطاع بعبقريته أن يستنطق سكون هذا العالم الفارغ الممتد، ويستثمر أساطيره وتاريخه وعاداته وتقليده، وحتى قيمه الإنسانية، ويبني منها عالما روائيا فريدا، عميق الدلالات والرؤى.

عادة ما تمثل الصحراء في نظر الكثيرين المكان الموحش الفارغ الذّي يسوده الجذب والقحط والحر، وكثيرا ما ينعتوها بالبدائية والتوحش، وأنه لا يمكنها أن تثير خيال الانسان المعاصر المبدع على غرار ما فعلته بخيال الشعراء في العصر الجاهلي، وبالرغم من كون الصحراء حاضرة دائما في حياة العربي حتى بعد أن شيد البيوت والمدن «فقيم الصحراء التشكيلية والفنية دخلت الحضارة

الحديثة من نوافذ تقنيتها، واستطاع الانسان العربي في العصور العباسية أن يزاوج بين قيم الصحراء، مساحة وضوء وفضاء، انبساط وتشكيلات السكن، خيام، مضارب، تجمع، وبين قيم المدينة الحديثة: بناء عمودي صلب...، لذلك حمل الجامع والديوان والبيت العباسي القيمتين: بناء بغرف وساحة داخلية واسعة تتوسطها نافورة ماء... وحولهما يتجمع الجالسون يتسامرون ويسمعون الأشعار».[11]

وكل هذا يدل على أنّ الانسان العربي مرتبط ارتباطا روحيا عميقا بالصحراء، على غرار المدينة التّي تعتبر حيزا هامشيا بحضور الصحراء، ومن هنا ذهبت جل النظريات إلى أنّ الحياة الحضرية المعاصرة معقدة لا يمكن للأديب أن يستقرئ إشكالاتها ومكوناتها وهواجسها الا اذا اقترنت عقدها وتلونت بخيباتها وانكساراتها، لا يمكن أن تتشكل بنيويتها أو تنمو إلا في فضاء المدن، حتى جاء الكوني وزلزل كل هذه المعتقدات، وأعاد كشف الصحراء، واستنطق مكنوناتها ودلالاتها الميثيولوجية الثرية.

تعتبر الصحراء زمرا من رموز الأساطير والحكايات والخرافات التّي ترتبط بعوالم خفية وتحاط بغموض وسرية عجيبة، كثيرا ما تكون موضوعاتها حول عالم الجن والكائنات الخارقة، وكل هذا يغذيه الفضاء الصحراوي الفسيح المفعم بالسكينة والإيهام اللتين تولدان الإلهام، وكل هذا يجعل منها مكونات تشكل علامات ورموز مشحونة بالإيحاء والرموز، إذ «يخص الإدراك وإنتاج المعاني على حد سواء، فإنّ العالم الطبيعي الخالي من أي شيء استثمار دلالي، لا يمكن أن يستأنس إلا من خلال تحويل الأشياء إلى علامات، وحينها فقط تتخلص الأشياء من مبعدها الوظيفي لكي تصبح خزانا لكمية هائلة من المعاني».[12]

فالكوني إذن يصور لنا الصحراء ومجتمع الطوارق في جو سردي تخيلي مليء بالأساطير، وهي «أساطير تومض ثم تنطفئ، لكنها تنبض بالحيوية والتألق، ومحورها العلاقة المتلبسة بين الانسان والانسان أو بين الانسان المتوحد والحيوان، ولو رتبت هذه الأساطير على وفق أنساق محددة، لشكلت بمجموعها ما يمكن الاصطلاح عليه بميثيولوجيا الطوارق».[13]

وجد الكوني في الصحراء خزانا هائلا من الرموز والعلامات الدالة، فكل شيء في الخطاب السردي عند إبراهيم الكوني «علامة مختزنة بكم هائل من المعاني خلف كلمات بسيطة بساطة المكان الجغرافي، ولكنها عميقة في دلالاتها عمق المكان الصحراوي، وهي تستدعي ذلك التراث الغني من التاريخ والأسطورة والتصوف والفلسفة والعادات والقيم الإنسانية التّي تختزل عادات وأفكار وعقائد وتاريخ فتضع أسطورة الصحراء، وعلى هذه الجزئيات التّي تعبر عن علاقات حيائية بين الانسان الصحراوي ومكانه، يبني إبراهيم الكوني رواياته، فعبر علاقة "أوخيد ومهرية "تستنطق رواية الشبر (1992)، وعبر علاقة "أسرف وحيوان الودان ونقوش الصخور الجبلية" تلتقي رواية "نزيف الحجر" (1990)، وهكذا في كثير من رواياته المتعلقة بالصحراء».[14]اذن فكل شيء في أدب الكوني يحيل إلى أسرار الكون، ويروي حكاية الخليقة بلغة مشفرة وأسلوب خفي، لغة الأساطير والدلالات المتخفية وراء حياة كائنات

الصحراء، هذا العالم اللانهائي المشحون بالرموز والإشارات، فالكوني يؤمن إيمانا عميقا بأن رواية الصحراء مرتبطة ارتباطا وثيقا بالصحراء، فهي لا تكتمل إلا بها، لأنّ وجود الصحراء في العالم أشبه بالأسطورة «وجودنا لغز لا يكتمل وجوده إلا بوجود ثالوث: الرواية، الخلاء، الأسطورة، الرواية روح اللغز والخلاء جسده، والأسطورة لغته، الرواية فيه روح والأسطورة له روح، فالسرد لا يبقى سردا، والرواية لا تصير رواية إذا لم تتكلم الأسطورة».[15]

فالصحراء عالم الخيال والنبوءات والأساطير والخرافات «كما كانت الصحراء دائما وطن الرؤى السماوية»[16]، ومن هنا سعى الكوني إلى أسطرة جميع الظواهر والكائنات الصحراوية بمختلفها بشرا كانت أو حيوان أو نبات.

يتجلى الملمح الأسطوري للنباتات الصحراوية في جو حكائي وكتابة جمالية مبهرة، حيث سيطر على النسيج السردي عند الكوني، فالصحراء بخصائصها الجغرافية وتميزها وتفردها تبدو كأسطورة ناطقة، فنجد أنّ الكوني في رواياته لا يكاد يهمل نبتة من نباتات الصحراء، ولقد اهتم بها ووصفها وبحث في منافعها وخصائصها، ومن أكثرها ورودا في أعماله: الطلح (آبسغ) باللغة الطارقية «فكل نبتة في الصحراء زائلة إلا الطلح»[17]، وكذا نجد أنّ الكاتب يورد أسطورة طارقية تعليلية عن ظهور الرتم، إذ يعتبره كائنا أبديا ويصفه بالخلود «فيردد الرعيان في مجالس الليل كيف تحايل "مندام" على العسس، عندما أمر السلطان بطرده من البستان، فأخفى "كسمبي" تحت لسانه، ولفظها من فمه ما إن نزل الصحراء، فنبتت الشجرة وصارت النبتة الوحيدة المستعارة من بساتين الواحة الضائعة».[18]

يكثر النخيل ويشكل غابات في الواحات، وهو أنواع ذكرت في رواية الواحة، يثمر النخيل ثمرا متنوعا يشكل غذاء أساسيا ويوميا في حياة سكان الصحراء، والواحات على حد سواء، حيث احتلت النخلة مكانة هامة وساحة سردية بارزة في الأجزاء الثلاثة الأخيرة من رباعية الخسوف.

وكذلك نجده يورد نبات آخر تحوطه هالة من العجائبية هو نبات آسياد، حيث يمثل دورا بطوليا في رواية التبر «يعتقد أنّه السلفيوم، وهو نبات أسطوري انقرض في ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد»[19]، وبفضل هذه النبتة تتم معجزة شفاء المهدي الأبلق من الجرب الذّي أصابه، وقضى على جماله، فحينما يعالج "أوخيد" يستعد الأبلق عافيته، ومواصفاته الأولى، كما تشكل النبتة المحور الرئيس الذّي تبنى عليه رواية "عشب الليل"، والعنوان يحيل مباشرة إليها، حيث أنّ بطل الرواية "وأن تيهاي" يقطف النبتة ليلا، لأنّها تختفي في النهار، وهي تمنحه فحولة عجيبة.

ومن النباتات الصحراوية الأخرى التّي شحنها الكوني في رواياته بنفحات أسطورية، ثمرة الترفاس، أو الكمأ، حيث شبه الحصول على هذه الثمرة في الصحراء بالعثور على كنز «وما هو الكنز إن لم يكن ترفاس؟ ثمرة تسقط من السماء، يجود بها العدم، تتشقق عنها

الأرض، شذى ينطق تائها في المطلق، تذروه الرياح وتعيده إلى الأرض، تلتحم البروق وتتزاوج بالرعود فتولد الثمرة من قلب الفناء».[20]

ومن ناحية أخرى نجد الكوني يرصد الحيوانات الصحراوية، إذ نجدها حاضرة بقوة في رواياته، حيث تشكل عنصرا مركزيا في سيرورة السرد وتشكيل الأحداث، فالصحراء في أعمال الكوني لا تعني «المكان المرئي المفعم بالفراغ اللامحدود، وإنما الصحراء هي رمز أو بالأحرى، مجموعة من رموز حية وإيحاءات ثرية مكتنزة بالدلالات المتثوبة، الحاضرة والمؤجلة، التّي تتوارى خلف تخومها النائية أسرار وأشواق وأشجان...>فيتحول العالم الطبيعي للصحراء إلى عالم من الأفعال السردية، فالعالم الطبيعي الخالي من أي استثمار دلالي، لا يمكن أن يستأنس إلا من خلال تحويل الأشياء إلى علامات».[21]

ولطالما اعتبر الحيوان الصحراوي عنصرا مهما وفاعلا في البناء الروائي لإبراهيم الكوني، فاستعمل الودان (أوداد)، الذّي يعتبر أقدم حيوان في الصحراء الكبرى، حيث انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر، وقد اتصف في أعمال الكوني بالقداسة والمهابة نظرا لقيمته الروحية في الثقافة الصحراوية، وإبراهيم الكوني «يأخذ هذا الحيوان النادر ويكتشف فيه الأسطورة، ويحوله في رواياته إلى مخزن للأسرار والغيب وحكمة الأجداد، إنه يلعب دور المنذر، وهو موجود لحظة مواجهته الصحراوي لقدره الفاصل... الودان في روايات إبراهيم الكوني أصبح حيوانا مقدسا يجمع بين واقعية حضوره المادي وأسطورية معانيه عند أهل الصحراء، لقد توسع إبراهيم الكوني في معاني استمرار هذا الحيوان النادر ورفعه إلى مستوى الرمز في الأسطورة».[22]

كما تضمنت أحداث روايته حيوانات أخرى كالمهري الذّي يشارك الإنسان البطولة في رواية البربر، وكذلك مجموعة أخرى من الحيوانات كالغزال والضب والأرنب البري والثعبان والحية والعقرب، وكذا مجموعة من الطيور المرتبطة أسماؤها بأساطير السحر والصحراء، سخرك، إيبراطن، وآييل بيل، الزؤوان، مولا، مولا، وهكذا يكون لكن كائن في الصحراء ملجِه الخاص ومكانه الأنسب للعيش، فكثيرا ما كان "الكوني" يختار الحيوان كرفيق للإنسان «يبته لواعجه وعزلته، ثمة تساوق مثير للانتباه في مستوى القيمة الممنوحة للحيوان والإنسان... ففي كثير من اللحظات الحرجة، حيث الوحدة المستحكمة، لا يجد الإنسان إلا الحيوان مشاركا له في كل شيء فيبته ما يعتمل في داخله على شكل حوار معلن حينا، ومناجاة داخلية أحيانا أخرى».[23]

ومن هنا نخلص أنّ إبداع "الكوني" وعبقريته الروائية تجلت في:

1- نسجه للفضاء الصحراوي، إذ سطع نجم هذا الروائي المبدع المتفرد في سماء الرواية الليبية وعند الوريث الشرعي للموروث الثقافي العريق للصحراء الكبرى وقبائلها وخاصة الطوارق، فقد استطاع بموهبته الفذة أن يغني هذا الفضاء المقفر المجدب وجعله مفعما بالإيحاءات والرموز.

2- برع الكوني في النفاذ والغوص في العوالم التخيلية والإنسانية العجائبية حيث أماط اللثام عن الطوارق واصفا هويتهم العربيّة وأصالتهم، مستنطقا الموروث الأسطوري والثقافة العجائبية.

3- يظل "إبراهيم الكوني" ظاهرة أدبية وفكرية لن تتكرر في ساحة الرواية الصحراوية، ويندر أن يحوي الأدب مثله.

4- جاء تفاعل "الكوني" مع الصحراء حسيا ومعنويا، حيث أخذت في كتاباته صورا ومدلولات مختلفة، تعظمها وتكشف عن مكانتها في النّص الروائي.

5- رسم لنا من خلال رواياته تفاصيل المعيش اليومي في الصحراء، باقتصارها وكفافها وحالاتها المادية.

6- اهتم بكل الكائنات الصحراوية من حيوان ونبات، وجعلها تتقاسم البطولة في رواياته مع الانسان.

7- يمكن للباحث الأنثروبولوجي أن يجد في روايات الكوني مادة واقعية عن حياة الصحراء، فهو يصور مناخها وكائناتها ومظاهرها الطبيعية، وأوصاف سكانها وعاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم ومعتقداتهم.

الهامش:

(1) خالد زغريت: جماليات ميثولوجيا الصحراء راوية (نزيف الحجر) لإبراهيم الكوني، مجلة أمكنة، 2011/03/18، 2019/03/13 www.omkinda.you.

(2) المرجع نفسه.

(3) سعيد الغانمي: ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص14.

(4) د. عثمان الميلودي: العوالم التخييلية في روايات إبراهيم الكوني، ص164.

(5) د. عثماني الميلودي: ص165.

(6) المرجع نفسه، ص167.

(7) عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط1، لبنان، 2005، ص570.

(8) محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، سوريا، 2002، ص218.

(9) أمينة برانين: فضاء الصحراء في الرواية العربية، المجوس لإبراهيم الكوني نموذجا، دار غيداء للنشر، ط1، 2001، ص16.

(10) صالح صالح: الرواية العربيّة والصحراء، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د، ط)، 1996، ص02.

(11) ياسين النصير: الرواية والمكان، (د، ط)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص121.

(12) سعيد بن كراد: السرد الروائي وتجربة المعنى، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2008، ص10.

(13) عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص568.

(14) محمد حسين مدين: صحراء الكوني في عالمه السردي، www.nafha.com 2021/08/25.

(15) إبراهيم الكوني: صحرائي الكبرى، المؤسسة العربيّة للنشر، بيروت، 1998، ص122.

(16) إبراهيم الكوني: الخروج الأول إلى وطن الرؤى السماوية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1992، ص03.

(17) إبراهيم الكوني: رواية فتنة الزؤوان، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط1، 1995، ص76-77.

(18) المرجع نفسه، ص85-86.

(19) إبراهيم الكوني: رواية السحرة، ج2، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1995، هامش الصفحة 310.

(20) إبراهيم الكوني: أخبار الطوفان الثاني، ط2، دار الطاسيلي للنشر والإعلام، ودار التنوير، المغرب، 1991، ص52.

(21) محمد حسين مرين: صحراء الكوني في عالمه السردي www.nafl.org 2021/08/25.

(22) نوتوهار انوبواكي: العرب وجهة نظر يابانية، دار الجمل، ط3، 2003، ص90.

(23) عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص149.